علاقة الدولة الأيوبية ودولة سلاطين المماليك مع أوروبا في عصر الحروب الصليبية

إعداد الأستاذ الدكتور
حسنين محمد ربيع

أبيض

في يوم الجمعة ٧ من ذي القعدة ٤٦٣هـ/ ٦ أغسطس ١٠٧١م انتصر المسلمين

انتصاراً رائعاً حاسماً على البيز نطيين في موضع يعرف بالزهرة شمال بحيرة وان في ارمينية على مقربة من منازكرد وكان المسلمون بقيادة السلطان السلجوقى الب أرسلان الذى استثار جنوده قبل المعركة عندما خاطبهم قائلا :«أنا احتسب نفسى عند الله، وهى إما الشهادة وإما النصر ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾» وحل الدمار بالجيش البيزنطى بقيادة الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينس الذي وقع أسيراً في أيدي السلطان السلجوقى...

وتعتبر هزيمة البيزنطيين على مقربة من منازكرد نقطة تحول خطيرة في التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوروبي بصفة عامة، والبيزنطي بصفة خاصة فلأول مرة يقع الإمبراطور البيزنطي نفسه أسيرا في أيدي المسلمين الفاتحين، ولا تقل أهمية هذه المعركة و نتائجها عن معركة اليرموك، فإذا كانت معركة اليرموك قررت مصير بلاد الشام فإن معركة منازكرد قررت مصير آسيا الصغرى. إذ نجح السلاجقة المسلمون في الصغرى من الحضارة اليونانية والديانة والآداب المسيحية، إلى العقيدة والحضارة الإسلامية، وما تحمله من نظم وآداب وقيم...

وتولى عرش القسطنطينية الإمبراطور ميخائيل السابع دوقاس وكان لديه الأمل في العودة لقتال المسلمين، وكان لدى البيزنطيين إيمان قوى في إمكانية تحقيق نصر عليهم بمساعدة الأوروبيين. والتفتوا طالبين المساعدة من روبرت جويسكار Robert Guiscard زعيم النورمان، الذي كان قد انتهى من الاستيلاء على الممتلكات البيزنطية في جنوب إيطاليا عام ١٠٧١م، وذلك

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، ج ، دمشق ١٩٥٤، ص٢٥ الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق اختصار الفتح بن علي البنداري، بيروت ١٩٧٨، ص٤٠-٤١، والآية الكريمة ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [**الحج** : ٤٠].

باستيلائه على مدينة بارى Bari، وأصبح سيد إيطاليا[١]...

وعندما فشلت محاولة الاستعانة بالنورمان ضد المسلمين في الشرق، حاول الإمبراطور ميخائيل السابع دوقاس الاستنجاد بالبابوية، فاتصل بالبابا جريجورى السابع ووعده في مقابل مساعدته ضد التوسع الإسلامي في آسيا الصغرى بالعمل على إزالة القطيعة بين منيستي روما والقسطنطينية. ولقد أجاب البابا جريجورى السابع إجابة طيبة، وأرسل عدداً من الرسائل إلى ملوك وحكام أوربا، يشرح لهم فيها حقيقة موقف المسيحية في بلاد الشرق، وما تعانيه الدولة البيزنطية نتيجة توسع "الوثنيين" - ويقصد الأتراك السلاجقة المسلمين الذين وصلوا إلى أسوار القسطنطينية. ويفهم من الرسائل التي أرسلها البابا جريجورى السابع إلى دوق برجنديا، وهنرى الرابع إمبراطور ألمانيا وغيرهما يحثهم فيها على مساعدة البيزنطيين ضد المسلمين، أن البابا لم يقصد الدعوة إلى حملة صليبية للاستيلاء على الأراضي المقدسة في فلسطين من المسلمين، بل كانت خطة البابا هي إعداد حملة حربية إلى القسطنطينية لإنقاذ الدولة البيزنطية، وهى الدولة التي تقوم بدور المدافع الرئيسي ضد المسلمين في الشرق. ورأى جريجورى السابع أن تقديم مثل هذه المساعدة سوف يتبعه وحدة الكنائس وعودة الكنيسة الشرقية (الضالة) إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية. ولم يأت استغاثة البابا جريجورى السابع بنتائج إيجابية، إذ لم تصل أية مساعدات حربية أو غيرها من أوروبا الغربية...

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين بعد ذلك الاستعانة بملوك وأمراء اوربا ضد السلاجقة المسلمين، وأرسل رسائل إلى الغرب الأوروبي طالبا المساعدة والعون[٢]. غير أن الدعوة لإعداد حملة حربية إلى بلاد الشرق الإسلامي كانت قد انتشرت بسرعة بفضل جهود البابا أوربان الثانى Urban II...

---

(1) Vasiliev, Byzantine Empire, II, Madison. 1961, pp. 359, 361.

(٢) حسنين ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، الطبعة السابعة، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ١٩٥-١٩٦.

وتجدر الإشارة إلى أن أوروبا قامت بحملات صليبية ضد المسلمين قبل دعوتها لما يسمى بالحملة الصليبية الأولى، مثل الحرب ضد المسلمين فى الأندلس، وغزوات النورمان ضد المسلمين في أبوليا وصقلية. وكان البابا أوربان الثانى أحد البابوات الأكفاء على دراية كبيرة بالأمور السياسية فى عصره. وكانت لديه القدرة على التوفيق بين الفرق المختلفة المعاصرة. واستطاع هذا البابا أن يشرك البابوية مع البيازنة والنورمان في حركة توسعية، واستطاع أيضاً أن يربط بين الحرب المقدسة في نفس الدرجة من الأهمية التي وضع فيها البابا الحرب الصليبية ضد المسلمين في الشرق الإسلامي.

وفي نوفنبر سنة ١٠٩٥ وفى كلير مونت Clermont في وسط فرنسا. انعقد المجمع الدينى المشهور حيث امتلأت المدينة بالزوار. وفى نهاية جلسات المجمع ألقى البابا أوربان الثانى خطبة مشهورة، حث فيها جموع الحاضرين على حمل السلاح «لتحرير» بيت المقدس، ومساعدة المسيحيين الشرقيين، ووعدهم بالغفران من الخطايا والمسامحة من الديون، وحماية ممتلكاتهم أثناء مدة غيابهم عن أوطانهم. وتلقف دعوة البابا اوربان لحملة صليبية إلى الشرق جموع المسيحيين الأوروبيين[٢].

والحقيقة أن الحروب الصليبية هي حركة نبعت من الغرب الأوروبي، اتخذت من المسيحية ستارا كاذبا لها، وشنت هجوما استعماريا على ديار الإسلام والمسلمين، وحملت معها العداء والحقد الدفين. ولسنا هنا في مجال الحديث عن بواعث وأسباب الحروب الصليبية، فهذه الحروب انبعثت نتيجة الأوضاع الدينية، والفكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، التي سادت غرب أوروبا أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. يضاف إلى ذلك أن الحروب الصليبية بدأت فعلا قبل الحملة التي عرفت في التاريخ باسم (الحملة الصليبية الأولى). فمنذ توسع المسلمون في حوض البحر المتوسط، لم تنقطع الحروب بين المسلمين والمسيحيين الأوروبيين في آسيا

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٥-١٩٦.

(2) Vasiliev, Byz. Empire, p. 402/; Setton, A Hist. of the Crusades, I (1958), pp. 236-52.

الصغرى، وشمال إفريقيا، وأسبانيا، وصقلية، وبعض جزر البحر المتوسط وأبلغ دليل على ذلك أن المؤرخ ابن الأثير بدأ حديثه عن الحرورب الصليبية بالإشارة إلى خروج الفرنج إلى بلاد الإسلام، واستيلائهم على طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م ثم استيلائهم على صقلية سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م(١).

وتاقت البابوية إلى مد نفوذها وسلطانها في الشرق، وتحقيق آمالها في السيادة على العالم المسيحي. وساءت الأحوال الاقتصادية في غرب أوروبا وبخاصة فى فرنسا، مما دفع بجموع الأمراء الإقطاعيين والفرسان والمزارعين والأقنان، إلى الخروج في الحملة الصليبية الأولى هروبا من أحوال معيشية سيئة، وأملا فى تأسيس إمارات في الشرق على حساب المسلمين. وساهمت المدن التجارية الإيطالية في الحملة الصليبية بغية السيطرة على موانى الشرق الغنية وطرق التجارة العالمية. وقصد النورمان استخدام الحركة الصليبية في الاستيلاء على أراضى جديدة، وتحقيق انتصارات على حساب بيزنطة. وسمعت البابوية لتحويل طاقات النورمان الحربية إلى ميدان آخر بعيدا عن جنوب إيطاليا(٢).

ومن الحقائق المسلم بها أن الانتصارات الكبيرة والمكاسب الضخمة التي حققها الصليبيون في الشرق غداة وصولهم في أواخر القرن الخامس الهجرى/أواخر القرن الحادي عشر للميلاد، وتأسيسهم لإمارات صليبية في أنطاكية و الرها وطرابلس ومملكة بيت المقدس، لم ترجع إلى قوتهم أو شجاعتهم بقدر ما كان مردها إلى ضعف القوى الإسلامية، وانغماسها في خلافات مكنت الصليبيين من النفاذ إلى قلب العالم الإسلامي بالشام. يضاف إلى ذلك أن الخلافة الفاطمية وقفت موقفا سلبيا من الحملة الصليبية الأولى عند وصولها إلى شمال الشام، ولم يشارك الفاطميون القوى

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ليدن (١٨٥١-١٨٧٦م)، ج١؛ ص ٢٧٢.

(٢) عن بواعث الحركة الصليبية، انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٣، ج١، ص٢٧-٤٣.

الإسلامية التي نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين.(١)

وفى سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م استرد عماد الدين زنكي أتابك الموصل مدينة الرها من الصليبيين بعد أن أحاط بها من جميع الجهات، وحال بينها وبين ما يصل إليها من الميرة والأقوات، أعادها إلى حوزة الإسلام والمسلمين. ويعتبر استرداد عماد الدين زنكى الرها نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية و بوصفها أولى الإمارات التي أسسها الصليبيون في الشرق الإسلامي، بالإضافة إلى موقعها الإستراتيجي الهام في الطرق الموصل بين الموصل والشام. وبالتالي فإن بقاءها في أيدي الصليبيين كان من شأنه ان يحول دون اتحاد القوى الإسلامية في أعالي العراق والشام(٢).

وأحدث سقوط الرها في أيدي المسلمين هزة كبيرة ويأسا عميقا فى الغرب الأوروبي ، و بخاصة انه لم يكن في قدرة البابا ـ وقتذاك ـ يوجن الثالث Eugenius I I I قيادة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة إلى الشرق، وتولى هذا الأمر الملك لويس السابع ملك فرنسا . وممن قام بالدعاية لتلك الحملة الصليبية الراهب برنارد رئيس أحد الأديرة. وبعد أن نجح برنارد في دعوته في فرنسا لحملة صليبية، ذهب إلى ألمانيا، ونجح في الحصول على موافقة الإمبراطور كونراد الثالث على الاشتراك في هذه الحملة الصليبية. وسرعان ما كثر عدد المشتركين في الحملة الصليبية الثانية(٣).

وفشلت الحملة الثانية. ويرجع فشلها إلى أسباب كثيرة منها عدم التنظيم العام بين الصليبيين، والنزاع المستمر الذي نشب بينهم. وقد اختار رجالها أن يسلكوا الطريق البرى عبر آسيا الصغرى في طريقهم إلى الشام بدلا من الطريق البحري المباشر مما أدى إلى وقوع معظم المحاربين الأوروبيين فريسة سهلة في أيدي السلاجقة المسلمين. يضاف إلى ذلك أن

---

(١) انظر سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية، في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت ١٩٧٧، ص ١٦٥-٢٢٣.

(٢) عن استرداد الرها انظر: ابن القلاسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق آمدروز، بيروت - ليدن ١٩٠٨، ص ٢٧٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٥٣٩هـ.

(3)Vasiliev, Byz. Empire. II, pp. 418-19.

الحملة الصليبية هاجمت مدينة دمشق بدلا من توجيه الحملة ضد مدينة حلب، التي كانت مركزا هاما للجهاد الإسلامي ضد الصليبيين زمن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى(1).

واستفاد المسلمون فائدة كبيرة من فشل الصليبيين حملتهم؛ فقد استشرت فكرة الجهاد الإسلامي، وتم إحياؤها للقضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام ورأى نور الدين محمود أن ذلك لن يتم إلا بتوحيد الجبهة الإسلامية وفي سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م استولى نور الدين على مدينة دمشق، وبعدها استولى اثنان من قادة نور الدين هما شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي على مصر سنة ٥٦٤هـ /١١٦٨م بعد ثلاث محاولات متتالية، وتم القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية، وأصبح صلاح الدين الأيوبي هو المتحكم في حلقه القوى الإسلامية، وبخاصة أنه عاش في ذروة عصر الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وتعلم من نور الدين محمود فضائل كثيرة أهمها الاجتهاد في أمور الجهاد. وأظهر صلاح الدين كفاية حربية كبيرة، وخبرة عسكرية نادرة، دبلوماسية رائعة.

وتلقى الصفحات التاية أضواء كاشفة على علاقات السلطان صلاح الدين مع الدولة البيزنطية، والقوى الأوروبية في عصره. فقد أدرك صلاح الدين مصالح المدن التجارية الإيطالية وبخاصة بيزا جنوة ، والبندقية بالنسبة للوجود الصليبي في بلاد الشام ، لهذا بذل كل جهوده لجذب التجار الإيطاليين إلى مصر لتحقيق هدفين : الأول منهما زيادة الموارد المالية لمصر والشام ، والهدف الثاني هو إضعاف شأن تجارة الصليبيين وبخاصة بعد سيطرته على تجارة البحر الأحمر الذي كان بحرا إسلاميا خالصا(2).

وفى الرسالة المشهورة التي أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة العباسى

---

(١) انظر حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون، القاهرة ١٩٤٨وص ٤٩-٦٠؛ حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٧١،ج١، ص ٢٧٠-, ٢٧٦

(٢) انظر حسنين ربيع، البحر الأحمر في العصر الأيوبي، في كتاب البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، ط. القاهرة ١٩٨٠، ص ١٠٥-١٢٣.

المستضئ سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ما يشير إلى المعاهدات التجارية مع الإيطاليين من البنادقة والبيازنة والجنوبية، تقول الرسالة «كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم، ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الإسلام فى الأموال المجلوبة، و تقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويقترب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده، وكلهم قد قررت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة على ما نزيد ويكرهون، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون».(١)

وقام صلاح الدين في نفس الوقت بإجرء مفاوضات سياسية وتحالف مع الدولة البيزنطية. ويبدو أن الاتصالات بين البيزنطيين وصلاح الدين بدأت منذ أيام الإمبراطور مانوتيل كومنين المتوفى سنة ١١٨٠م. ففى الرسالة التي أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي سنة ١١٧٤م ذكر صلاح الدين الإمبراطور البيزنطى من بين الأعداء المحدقين بالدولة الإسلامية فيقول: «فمنهم صاحب قسطنطينية، وهو الطاغية الأكبر، والجالوت الأكفر و وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغلبت». ثم يذكر صلاح الدين تحولا خطيرا فى السياسة البيزنطية تجاه الأيوبيين فيقول: «ولم نخرج من مصر إلى أن وصلنا رسله فى جمعة واحدة نوبتين بكتا بين و كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح وإلقاء السلام و والانتقال من معاداة إلى مهاداة و ومن مفاضحة إلى مناصحة»(٢).

وقد حدث تقارب ملموس بين صلاح الدين والبيزنطيين منذ عهد الإمبراطور الكسيوس الثانى بن مانيول. وفي صيف عام ١١٨٥م، أرسل الإمبراطور البيزنطى أندرونيقوس الأول سفارة لصلاح الدين و وطلب قيام تحالف حقيقى بينهما. وقبل وصول رد صلاح الدين إلى القسطنطينية تولت

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، القاهرة ١٨٧٠م، ص. ٢٤٣.
(٢) المصدر السابق، ج١ ، ص٢٤٢-٢٤٣.

الكوارث على الدولة البيزنطية، وتم عزل أندرونيوقس فى ١٢سبتمبر ١١٨٥م ونودى بإسحاق الثانى أنجيلوس إمبراطور.

وتلقى الإمبراطور إسحاق أنجيلوس إجابة صلاح الدين على سفارة سلفه اندرونيقوس ، و التي احتوت على صيغة معاهدة مقترحة. وصادق الإمبراطور إسحاق على المعاهدة. غير أن الإشاعات عن التحالف البيزنطى ـ الإسلامي تسربت إلى الصليبيين عند قرون حطين فى ٢٥ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ ٤يوليو ١١٨٧م، وتبين للصليبيين وحكام غرب أوروبا بعد المعركة أن قطرة واحدة من الدم البيزنطى لم تهرق فى حطين، ولم يشترك جندي بيزنطى واحد فى هذه المعركة. وتوجه صلاح الدين انتصاراته باسترداد بيت المقدس فى ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/٢ أكتوبر ١١٨٧م(١).

وقد أورد أبو شامة فى كتاب الروضتين بعض الرسائل الصادرة من صلاح الدين تلقى الأضواء على حقيقة علاقة صلاح الدين بالبيزنطيين، ومدى حرص الدولة البيزنطية على كسب ود الناصر صلاح الدين فبعد الانتصارات التي حققها صلاح الدين فى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م في بلاد الساحل الشامي كتب القاضي الفاضل على لسان صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام باليمن و يوضح له فيها أن صاحب القسطنطينية كان ممن كتبوا إليه ينذرونة باستعدادت ملوك وأمراء أوروبا للقيام بالحملة الصليبية (الثالثة).وورد فى الرسالة: «وقد كتب المستخدمون بالإسكندرية وصاحب قسطنطنية والعثور المغربية ينذرون بأن العدو قد جمع أمرا وحاول نكرا، وغضبوا زادهم الله غضبا، وأوقدوا نار للحرب جعلها الله عليهم حطبا، وسلوا سيوفا للبغى، لا يبعد أن يكونوا أغمادها، وتواعدت جموع ضلالتهم أخلف الله ميعادها».(٢)

ونقل أبو شامة عن العماد الأصفهاني في حوادث سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م

---

(١) حسنين ربيع، دبلوماسية صلاح الدين تجاه بيزنطة في ضوء معركة حطين في كتاب : سعيد عاشور الأيه في عيد ميلاده السبعين ، القاهرة ١٩٩٢، ص١-٢.

(٢) أبو شامة : كتبا الروضتين، ج٢ ،ص١٣٦.

وصول كتاب من ملك قسطنطينية «يتضمن استعطافا واستسعافا، ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة فى جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه، وأنه مستمر على المودة راغب فى المحبة. ويعتذر عن عبور الملك الألماني (فردريك بربروسا) وأنه قد فجع فى طريقه بالأمانى، ونال من الشدة ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه ، وأنه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه ، أو ينفع ويكون مصرعه هناك ولا يرجع»[١].

أما المؤرخ جمال الدين بن واصل فيذكر أن الإمبراطور البيزنطى كتب إلى صلاح الدين يخبره بإخبار ملك الألمان ويقول للسلطان: «أنا لا أمكنهم من العبور». غير أنه عندما عجز عن منعهم لم يسعفهم بزاد «فضاقت عليهم الأقوات وقلت». وعبروا «خليج القسطنطينية» وقد اشتدت ضائقهم ، وكثرت جموعهم وجوعهم»[٢].

أما حملتا فيليب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا فقد أبحرتا إلى فلسطين من صقلية حيث أمضيا فصل الشتاء (١١٩٠-١١٩١م). ولاشك أن تفضيلهما لاتخاذ طريق البحر إلى الشرق ، كان سببه تحالف الإمبراطور إسحاق انجيلوس وصلاح الدين.

وفشلت الحملة الصليبية الثالثة فى تحقيق أهم أهدافها، وهو الاستيلاء على بيت المقدس من المسلمين، وأرسل ريتشارد قلب الأسد إلى صلاح الدين فى طلب الصلح بعد أن تدهورت صحته. وكان صلاح الدين كريما مع عدوه إذ أرسل له طبيبه الخاص وأمده بالفاكهة والثلج، وكان يفاوض من مركز القوة نظرا للإمدادات العسكرية الكبيرة التي وصلته من أنحاء دولته. وتأكد صلاح الدين أن الدولة البيزنطية أصبحت عاجزة عن تقديم أية مساعدة عسكرية سواء للصليبيين في الشرق أو الأوروبيين الذين قدموا من الغرب.

وكيفما كان الأمر فقد فشل التحالف بين بيزنطة وصلاح الدين، فالسلطان المجاهد صلاح الدين كان لا يمكنه تقديم أية مساعدات يحمى بها

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص. ١٥٩

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٢، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧، ص٣١٨.

إسحاق انجيلوس من أعدائه لبعد المسافة وطبيعة العصر ، ولم تكن بيزنطة قادرة عسكريا أو اقتصاديا على مقاومة الصليبيين. وأما تقدير المسلمين لقيمة هذا التحالف مع البيزنطيين فقد سجله القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى بقلمه فى رسالتين أرسلهما صلاح الدين إلى الخليفة العباسى فى بغداد سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠-١١٩١م، ينهى إليه فى الرسالة الأولى وصول رسول ملك الروم بما فى صحبته من هديه ، وبما على لسانه من رسالة، وبما على يده من كتاب وأن رسول الإمبراطور البيزنطى حضر بين يدي الملك العادل للمفاوضة وعرض: «ما زبدته امتنان الملك بكونه لم يجب رسول ملك الألمان وصاحب صقلية وغيرهم من جيوش الفرنج إلى الموافقه على حرب السلطان (صلاح الدين) وإطلاق طريقهم. وامتنع (الإمبراطور)، وسد الدربندات ، وحفظ عليهم الطرق ، ووصى أرباب الحصون بالتيقظ لهم والمنع دونهم». ثم يذكر صلاح الدين للخليفة أن الإمبراطور البيزنطى خائف من الصليبيين، فإذا نجح فى دفعهم ادعى أنه فعل ذلك من أجل صلاح الدين، وإذا فشل كما حدث عند عبور حملة فردريك بربروسا، ادعى أن ذلك حدث دون رغبته وهذا ملك الروم خائف من الفرنج على بلده، مدافع عن نفسه، أن تم له الدفع ادعى أنه بسببنا، وإن لم يتم ادعى أنه غائب عن مقصده ومقصدنا. وفى الرسالة الثانية ـ بقلم القاضي الفاضل أيضا ـ أشار فيها صلاح الدين إلى وصول رسل حاكم قبرص الجديد (جاى لوزجنان)، الذي أصبح على علاقة طيبة به ، يخبره بأنه خرج عن طاعة ريتشاد«ملك إنجلترا» وواجهه بالحرب والعداوة . وأخبر صلاح الدين الخليفة بأن فى تخاذلهم نصرة الإسلام، وأمنا لجانب كثير من جوانب البحر. وورد فى الرسالة: «ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية فى أننا ننجده على قبرص، فإنا إنما وعدناه بالنجدة عليها لما كانت بيد عدونا، والله ما أفلح ملك الروم قط ، ولا نفع أن يكون صديقا، ولا ضر أن يكون عدوا ...»[٢].

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين، ج٢، ص ١٧٧-١٧٨.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص١٧٨.

وارتد فشل الحملة الصليبية الثالثة إلى بيزنطة بعد أن تأكد الصليبيون أن البيزنطيين خانوا القضية الصليبية، وفكر اللاتين فى الغرب الأوروبي في إعداد حملة صليبية جديدة. وكانت هنا آراء كثيرة تؤيد فكرة مهاجمة الدولة البيزنطية، وقهر البيزنطيين كمرحلة أولى لسياسة هجومية حقيقية ضد القوى الإسلامية. فقد عزى الغرب الأوربي فشل البيزنطيين الغادرين. وهذا يفسر سبب انحراف الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م الى القسطنطينية بدلا من مصر ، واستيلاء الصليبيين اللاتين على العاصمة البيزنطية.(١)

ومن الموضوعات الهامة في تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامي وأوربا في عصر الحروب الصليبية، موضوع علاقة السلطان الأيوبي الكامل سلطان مصر والشام والإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة في المانيا وإطاليا وصقلية. فكما اتخذ العصر طابعا حربيا عنيفا في صورة الحملات الصليبية، اتخذ طابعا فكريا سليما في صورة ازدياد النشاط التجاري بين الشرق والغرب، فضلا عن إقبال أوربا على علوم العرب وحضاراتهم، والاستفادة منها عن طريق الترجمة والنقل والمحاكاة.

وقد أفاض المؤرخون العرب والأوربيون في حب الإمبراطور فردريك للمسلمين، وإعجابه بحضارتهم وعلومهم وثقافتهم. أحاط فردريك نفسه بمظاهر شرقية عربية، حتى قيل إنه تعلم اللغة العربية وجمع حوله عددا كبيراً من العلماء والمغنيات العربيات، وشجع ترجمة الكتب العربية، كما شجع الجغرافيين والفلكيين والأدباء العرب. ووصفه المؤرخ أحمد بن علي المقريزي أنه كان «عالما متبحرا في علم الهندسة والحساب والرياضيات(٢). وقال عنه القاضي جمال الدين بن واصل إنه كان «من بين ملوك الفرنج فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب، مائلا إلى المسلمين لأن مقامه في الأصل ومرباه بلاد صقلية، وهو وأبوه وجده كانوا ملوكها، أهل تلك الجزيرة غالبهم

---

(١) حسنين ربيع ، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطة، ص٢٤٦-٢٤٩ .

(٢) المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٦-١٩٥٧، ج١، ص٢٣٢.

المسلمون»[1]. وذكر ابن واصل أيضا أنه كانت تجرى بين السلطان الكامل والإمبراطور فردريك محاورات في أشياء شتى، وسير الإمبراطور إلى السلطان مسائل حكمية، ومسائل هندسية ورياضية مشكلة، ليمتحن بها من عنده من الفضلاء. فعرض السلطان الكامل ما أورده من المسائل الرياضية على الشيخ علم الدين قيصر بن أبي القاسم المعروف باسم تعاسيف، وكان أشهر علماء عصره في الرياضيات، أرسل جوابها إلى الإمبراطور[2].

وماطل فردريك البابوية في الخروج لمحاربة المسلمين في حملة تحقق ما أخفقت في تحقيقه الحملات الصليبية السابقة. وكان فردريك يكره البابوية والكنيسة الغربية. (كنيسة روما)، تلك الكنيسة التي ناصبت أباه وأسلافه العداء. وقد ظهر هذا الشعور أثناء وجود فردريك الثاني في بلاد الشام، إذ يروى المؤرخ ابن واصل أنه سأل الأمير فخر الدين بن الشيخ ـ من كبار رجال الدولة الأيوبية في عهد السلطان الكامل ـ عن الخلافة الإسلامية وأصل الخليفة. فأجاب الأمير فخر الدين بأن الخليفة ينحدر من نسل العباس عم الرسول، وأنه أخذ الخلافة عن أبيه، أخذها أبوه عن أبيه «فالخلافة مستمرة في بيت النبوة، لا تخرج منهم». فقال الإمبراطور فردريك: «ماأحسن هذا، لكن هؤلاء القليلو (كذا) العقول ـ يعني الفرنج ـ يأخذون رجلا من المزبلة، ليس بينه وبين المسيح نسبة ولا سبب، جاهلا فدما، جعلونه خليفة عليهم، قائما مقام المسيح فيهم، وأنتم خليفتكم ابن عم نبيكم، فهو أحق الناس بمرتبته».[3]

وحدث خلاف بين السلطان الكامل بن العادل سلطان مصر، وأخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والأشرف موسى صاحب الجزيرة وخلاط. وتحالف الأشرف موسى مع الكامل ضد أخيهما المعظم عيسى. وكان وجه الخطورة في النزاع الذي نشب بين أبناء العادل هو أن الفريقين المتنازعين

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج٤، تحقيق حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٢ص ، ٢٣٤

(٢) المصدر السابق، ج٤ ص٢٤٢.

(٣) المصدر السابق ، ج٤، ص٢٥١.

استعانا بقوى خارجية، فاستنجد الملك المعظم بالخوارزمية، في حين استنجد الملك الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني. أرسل الكامل إلى الإمبراطور فردريك الثاني في صقلية مبعوثا خاصا هو الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ ليطلب من الإمبراطور «أن يحضر إلى الشام والساحل ويعطيه البيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل». وقد أحسن الإمبراطور فردريك الثاني استقبال الأمير فخر الدين مبعوث الكامل. ولم يكتف فردريك بأن وعد مبعوث الكامل بالحضور ومساعدته بل رد عليه بإرسال سفارة مماثلة إلى مصر معها «هدية سنية وتحف غريبة»، فتلقى الكامل رسول الإمبراطور وهديته بالسرور البالغ "أكرمه إكراما زائدا «كما اهتم الكامل بإعداد هدية فاخرة للإمبراطور فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم».(١).

ورغم أن البابا جريجورى التاسع أصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور فردريك الثاني في أواخر سبتمبر ١٢٢٧م، إلا أن الإمبراطور خرج في حملة صليبية قاصدا الشرق في صيف سنة ١٢٢٨م على رأس قوة صغيرة من رجاله، بعد أن انفض عنه كثيرون نتيجة لقرار الحرمان الصادر ضده.

ولم يكن فردريك الثاني يصل إلى عكا في أواخر ٦٢٥هـ/ سبتمبر سنة ١٢٢٨م حتى وجد الموقف في بلاد الشام قد أصبح مختلفا. ذلك أن البابا جريجورى السابع أخذ يرسل السفراء إلى ملوك بني أيوب، وبخاصة السلطان الكامل محرضا إياه على عدم تسليم بيت المقدس للإمبراطور فردريك. فقد كانت المعركة بين البابوية وبين الإمبراطورية أهم في نظرها من المعركة بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام. وتغير موقف السلطان الكامل، ذلك أن الملك المعظم حاكم دمشق ـ الذي كانت أطمعه هي السبب في استنجاد الكامل بفردريك – كان قد توفى، ولم يعد السلطان الكامل في حاجة إلى فردريك ومساعدته. وعلى حد قول المؤرخ ابن واصل: «لم يمكنه

---

(١) المقريزي، كتاب السلوك، ج١، ص٢٢٢، انظر سعيد عاشور، «الإمبراطور فرديك الثاني والشرق العربي»، المجلة التاريخية المصرية، م١١(١٩٦٣)، ص٢٠١ .

دفعه ومحاربته لما تقدم بينهما من الاتفاق، ولأنه كان يؤدي ذلك إلى فوات أغراضه التي كان في ذلك الوقت بصددها، فراسله ولاطفه».[1]

واضطر فردريك الثاني إلى استخدام سلاح المفاوضة والاستسلام والاستعطاف، فأرسل سفارة من رسولين إلى السلطان الكامل تحمل له هدايا نفيسة من منسوجات حريرية وأواني ذهبية وفضية ، وتطالبه بتحقيق وعده وتسليم بيت المقدس. غير أن السلطان الكامل أعلنها صراحة أنه كان سيعطي بيت المقدس للإمبراطور ثمنا للمساعدة التي يقدمها الإمبراطور ضد أخيه المعظم، أما وقد تبدلت الظروف ومات المعظم واستغنى الكامل عن المساعدة، فلا داعي للتفريط في بيت المقدس.

غير أن الاستعطافات نجحت أخيرا في التأثير على السلطان الكامل الذي رأي – كما ذكر ابن واصل – أنه «إن شاقق الإنبراطور (الإمبراطور) ولم يف له بالكلية أن يفتح له باب محاربة مع الفرنج، ويتسع الخرق ويفوت عليه كل ما خرج بسببه، فرأى أن يرضى الفرنج بمدينة القدس خرابا ويهادنهم مدة، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء».[2] وفي نفس الوقت قال الإمبراطور للأمير فخر الدين بين الشيخ: «لولا أني أخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئا من ذلك ، ومالي غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسى عندهم»[3].

وأخيراً تقررت قواعد الهدنة بين السلطان الكامل والإمبراطور فردريك الثاني لمدة عشر سنوات، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا . واشترط المسلمون أن تبقى مدينة بيت المقدس على ماهي عليه فلا يجدد سورها، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين وتقام فيها شعائر الإسلام.

ولما ورد الخبر إلى مدينة دمشق وغيرها، اشتد بكاء الناس وصريخهم

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٢) المصدر السابق، ج٤، ص٢٤٢ .

(٣) المصدر السابق، ج٤، ص٢٤٣؛ انظر أيضا المقريزي، كتاب السلوك، ج١، ص٢٣٠.

واشتد الإنكار على السلطان الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار، وغضب الصليبيون إذ رأوا أن كرامة المسيحية كانت تتطلب أخذ بيت المقدس بحد السيف، لا عن طريق الاستجداء والاستعطاف مثلما فعل الإمبراطور فردريك الثاني.[1]

وبعد عقد الهدنة استأذن الإمبراطور فردريك السلطان الكامل في زيارة بيت المقدس فأذن له بصحبة القاضي شمس الدين قاضي نابلس. وحكى القاضي شمس الدين للمؤرخ جمال الدين بن واصل أنه دخل مع الإمبراطور الحرم الشريف والمسجد الأقصى أعجبته عمارته، وعمارة قبة الصخرة المقدسة. وقضى الإمبراطور ليلته في المدينة. وحكى القاضي شمس الدين قاضي نابلس: «وأوصيت المؤذنين أنهم لا يؤذنون تلك الليلة احتراما له . فلما أصبحنا ودخلت عليه قال لي: «يا قاضي لم يؤذن المؤذنون على المنابر على جاري عادتهم؟». فقلت له: «إن الملوك منعهم من ذلك إعظاما للملك واحتراما له». فقال لي :«أخطأت فيما فعلت، والله إنه غرضي في المبيت في القدس أن أسمع آذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل» . ثم رحل إلى عكا.[2]

وفي أول مايو عام ١٢٢٩م أبحر فردريك الثاني من عكا قاصدا قبرص، حيث قضى عدة أيام ثم بارحها إلى إيطاليا.

ولا شك أن التوافق الشديد بين السلطان الكامل والإمبراطور فردريك الثاني في الطباع والتسامح المطلق وعدم التعصب، وحبهما للعلم والعلماء، أدى إلى التقارب بين الرجلين وإلى نوع من الصداقة تمثلت في المراسلة بينهما وتبادل الهدايا. واستمرت هذه الصداقة والعلاقات الطيبة بعد وفاة السلطان الكامل. فيذكر كل من ابن واصل والمقريزي أن فردريك الثاني حذر السلطان الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل من نية الملك الفرنسي لويس

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب ،ج٤، ص ٢٤١-٢٤٦؛ سعيد عاشور، الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، ص٢٠٨-٢٠٩، ظل بيت المقدس في أيدي الصليبيين خمس عشرة سنة فقط (١٢٢٩-١٢٤٤م).

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروبو ج٤، ص٢٤٤-٢٤٥.

(٣) المصدر السابق، ج٤، ص٢٤٦.

التاسع في مهاجمة مصر في عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م. فأرسل الإمبراطور فردريك إلى الملك لويس التاسع ينهاه عن ذلك ويخوفه ويحذره عاقبة الأمر، ولم يقبل الملك الفرنسي النصيحة، لذلك أرسل فردريك الثاني رسولا إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب قابله سرا، وأخبره الخبر وحذره وأشار عليه بالاستعداد له. وحكى رسول الإمبراطور للمؤرخ ابن واصل قصة سفارته أضاف: «وكان ذهابي إلى مصر ورجوعي في زي تاجر. ولم يشعر أحد باجتماعي بالملك الصالح خوفا من الفرنج أن يعلموا ممالأة الإمبراطور للمسلمين عليهم».(١)

أما عن العلاقات بين سلاطين المماليك والقوى الأوربية فيعصر الحروب الصليبية، فيلاحظ أن هناك عوامل وظروفا استجدت في أوربا أدت إلى قيام نهضة تجارية . وازداد اهتمام أوربا بالتبادل التجاري مع المسلمين للحصول على متاجر الشرق وتصدير ما يحتاج إليه المسلمون من السلع الأوربية. وكانت مدن البندقية وجنوة وأمالفي وغيرها من المدن التجارية الإيطالية بمثابة طلائع لدول أوربا في تجارة البحر المتوسط منذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد. وأخذت أساطيل أوربا التجارية تتوافد إلى المواني الإسلامية في مصر والشام.

وكانت الحركة الصليبية عاملا مساعدا له أهميته في زيادة التعامل التجاري بين المسلمين والفرنجة في أوربا. فعلى أثر إقامة الصليبيين في الشام أتيحت لهم الفرصة لتزداد معرفتهم بمنتجات الشرق وسلعه، مما أدى إلى تزايد ملحوظ في إقبالهم عليها. وتطلع كثيرون من الغربيين للحصول على هذه السلع، وتأتي على رأسها التوابل والبهارات المختلفة اللازمة لإعداد المأكولات أمثال القرفة والحبان والقرنفل والزنجبيل، وكذلك سلع أخرى مثل الأعشار اللازمة لصناعة العقاقير، وأخشاب البخور والعطور، والحرير

---

(١) المصدر السابق، ج٤، ص٢٤٧؛ انظر أيضا المقريزي، المواعظ والاعتبار (الخطط)، ط. القاهرة ١٢٧٠هـ١٨٥٢/م، ج١ ص٢١٩ وذكر المقريزى أن رسول الإمبراطور «ملك الفنرج الألمانية بجزيرة صقلية» قابل السلطان الصالح نجم الدين أيوب في قلعة دمشق في هيئة تاجر وأخبره سرا بالخبر.

والأحجار الكريمة والخزف. وكان الشرق الإسلامي في حاجة لاستيراد سلع معينة من الغرب الأوربي مثل الأخشاب التي كان يفتقر إليها، وكانت تلزمه لإعداد الأساطيل البحرية ولأعمال البناء. كما كان الشرق في حاجة إلى أنواع من المعادن مثل الحديد والنحاس وبعض الأسلحة إلى جنت المماليك الذين جلبهم التجار الأوربيون. ويلاحظ أن احتياجات كل من الطرفين للسلع التي يحصل عليها عن طريق الطرف الآخر اقتضت بالضرورة التعامل التجاري بينهما.

وتجدر الإشارة إلى أن الطريق الدولي الممتد من المحيط الهندي إلى مصر، احتل أهمية كبيرة، بعد أن تبين للتجار من المسلمين والأوربيين مميزات هذا الطريق، وتفوقه على غيره في نقل البضائع. وكانت السفن تتجه من المحيط الهندي إلى اليمن وبخاصة ميناء عدن لتواصل مسيرتها إلى البحر الأحمر، ومنه كانت تنتقل البضائع إلى الموانى المصرية الواقعة على البحر المتوسط وبخاصة مدينة الإسكندرية، التي أصبحت لها مكانة تجارية هامة. ومن الموانى المصرية والشامية كانت السفن الأوربية تنقل البضائع إلى موانى أوربا في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا وغيرها.

وهناك شواهد كثيرة تدل على اهتمام المسلمين بالتعامل التجاري مع الأوربيين. ومن هذه الشواهد تلك الرسالة التي أرسلها صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي المستضئ سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م وسبقت الإشارة إليها في هذه الدراسة. وأشارت الرسالة إلى المعاهدات التجارية مع الإيطاليين من البنادقة والبيازنة والجنوية.(١) ومن الشواهد على اهتمام المسلمين بالتعامل التجاري مع الأوربيين في عصر الحروب الصليبية تلك الوثائق التي حفظها القلقشندى في كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) وتحتوى على معلومات تدل على حرص السلاطين على تشجيع التجارة مع المدن الأوربية بتوفير الرعاية والحماية للتجار الأوربيين. ومن هذه الوثائق – على سبيل

---

(١) انظر ، أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج١، ص٢٣٤.

المثال - كانت الرسالة التي بعث بها السلطان المنصور قلاون حوالي سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٨٠م للقاضي جمال الدين بن بصاصة. ناظر ثغر الإسكندرية، يوصيه فيها بالحرص على حسن معاملة التجار الواردين إليه.ومما جاء في هذه الوثيقة: "...يجتهد في تحصيل أمواله، وتحصين ذخائره، واستخراج زكاته، وتنمية متاجره، ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا ألفوه منه، والرفق الذي نقلوا أخباره السارة عنه، فإنهم هدايا البحور، ودوالبة الثغور، ومن ألسنتهم يطلع على ما تجنه الصدور، وإذا بذر لهم حب الإحسان، نشروا له أجنحة مراكبهم وحاموا عليهم كالطيور، وليعتمد معهم ما تضمنته المراسيم الكريمة المستقرة الحكم إلى آخر وقت، ولا يسلك بهم حالة توجب لهم القلق والتظلم والمقت، وليواصل بالحمول إلى بيت المال المعمور، وليملأ الخزائن السلطانية من مستعملات الثغر أمتعته وأصنافه».(١)

يضاف إلى ذلك أن المواد والشروط التي تكرر النص عليهما في المعاهدات والهدن التي عقدت بين المسلمين والأوربيين في عصر سلاطين المماليك، تظهر الحرص على تأمين التجار الأوربيين سواء المقيمون في مصر والشام، أو القادمون من أوربا، وتأمين بضائعهم، وضمان حسن معاملتهم.

ومن الملاحظ أن البابوية ساءها الاهتمام الأوربي بالتعامل التجاري مع المسلمين وما كانت تجنيه مدن مصر والشام من مكاسب مادية من وراء التجارة مع أوربا، مما كان يساعدها في بناء قوتها العسكرية، والوقوف ضد الصليبيين. ولذا قامت البابوية وأنصارها من دعاة الحركة الصليبية بمعارضة الاتجار مع المسلمين ، بل لقد حرمته على المسيحيين، وأصدرت القرارات والمراسيم التي تقضي بذلك ، مهددة من لا يستجيب من تجارهم لأمرها بالحرمان من رحمة الكنيسة . غير أن موقف البابوية لم يسفر عنه توقف الأوربية، كانت تلك العبارة المأثورة عن البنادقة والتي جاء فيها: «لنكن بنادقة ولا ومسيحيين ثانية». ولم يقتصر الأمر على المدن التجارية الإيطالية.

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة ١٩١٤-١٩١٨، ج١١، ص٤٠-٤٢، انظر أيضا ص٤١٩-٤٢٣.

فقد اهتمت بالتجارة مع المسلمين دول وإمارات أوربية أخرى، بادرت إلى التفاوض مع الحكومات الإسلامية لعقد معاهدات واتفاقيات تجارية معها، مثال ذلك مملكة أرجون، وبرجنديا وبروفانس وفرنسا وغيرها.[1]

أما عن العلاقات الدبلوماسية بين سلاطين المماليك وبعض القوى الأوربية في عصر الحروب الصليبية، فقد حرص سلاطين المماليك العظام على الحفاظ على الود والعلاقات الطيبة السمحة مع أباطرة الدولة البيزنطية، كما فعل صلاح الدين وخلفاؤه. ومن جانب البيزنطيين حاول الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوغس أن يأمن جانب أقوى الدول الإسلامية وقت ذلك، وهي سلطنة المماليك، حتى يستطيع التفرغ لمواجهة المشكلات السياسية التي واجهته، ويضمن حليفا يقف إلى جانبه في حالة هجوم صليبي أوربي، لذلك تقرب إلى سلاطين المماليك، فأرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس طالبا منه إيفاد شخص لرعاية شئون الطائفة الملكانية المسيحية في القسطنطينية. وأرسل السلطان بيبرس سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م الرشيد الكحال ومعه بعض الأساقفة صحبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودي. واستقبلت السفارة المملوكية استقبالا حسنا، وزار الأمير أقوش المسجد الذي جدد الإمبراطور بناءه. وأرسل السلطان بيبرس إلى جامع القسطنطينية «الحصر العبداني، والقناديل المذهبة، والستور المرقومة، والمباخر والسجادات والعود والعنبر والمسك وماء الورد». ثم توترت العلاقات بين السلطنة المملوكية والدولة البيزنطية إلى بلاط بركة خان، خان مغول القفجاق سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م. غير أن الإمبراطور البيزنطى أطلق سراح رسل بيبرس وسمح لهم بمتابعة سفرهم، وأرسل الهدايا إلى السلطان بيبرس ليسترضيه.[2]

ولم يكتف السلطان الظاهر بيبرس بمحالفته إمبراطور القسطنطينية

---

(١) عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ط. الإسكندرية ١٩٨٦، ص١٠٢ وما بعدها.

(٢) المقريزى، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٤٧١-٤٧٢، ٥٣٧،٥١٤؛ محمد جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٦٠، ص١١٠-١١١.

ميخائيل باليولوغس، بل تبادل الرسل والهدايا مع مانفرد بن فردريك الثاني حاكم صقلية وتسكانيا. ويحكى المؤرخ جمال الدين بن واصل أن السلطان بيبرس أرسله سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م على رأس وفد رسولا إلى الملك مانفرد. وكان الوفد مزودا بالتحف وعددا من الزراف وجماعة من التتار الذين أسروا في موقعة عين جالوت بخيولهم التترية وعدتهم. وحكى ابن واصل الكثير من مشاهدته في صقلية وجنوب إيطاليا وأوضاع المسلين فيهما ، وأنه أقام عند الملك مانفرد مكرما واجتمع به مرارا ، ووجده «متميزا ومحبا للعلوم العقلية، يحفظ عشر مقالات من كتاب أوقليدس في الهندسة». وذكر ابن واصل أيضا بعض المدن في هذه البلاد أهلها كلهم مسلمون، تقام فيها صلاة الجمعة، ويعلن بها بشعار الإسلام منذ أيام الإمبراطور فردريك الثاني. وأضاف ابن واصل أن مانتفرد شرع في بناء دار علم في جزيرة صقلية «ليشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية، ووجدت أكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة به مسلمين، ويعلن في معسكره الآذان والصلاة».[١]

وذكر ابن واصل أيضا أنه بعد عودته من صقلية وجنوب إيطاليا جاءت الأخبار أن البابا "صاحب رومية العظمى "أصدر قرار الحرمان ضد الملك مانفرد بن فردريك الثاني كنوع من العقاب، وبالتالي قطعه من الكنيسة، وحرر جميع رعاياه وأتباعه من أيمان الطاعة والتبعية التي أقسموها له «لميله إلى المسلمين وخرقه ناموس شرعهم». وأورد معلومات فريدة من نوعها عن مكانة البابا وأهميته ومكانته فيهول: «والبابا برومية هو خليفة المسيح عندهم، والقائم مقامه من هو أيضا متصف بصفة الرهبانية»[٢]. ثم حكى ابن واصل بعض المعلومات الهامة التي سمعها أثناء وجوده في بلادهم، ووالیت توضح علاقة الإمبراطور فردريك الثاني بالبابا، وأسباب العداء المستحكم بينهما ، وكيف تولى فردريك منصب الإمبراطورية، والدول الذي لعبه البابا في قتل الملك مانفرد، وهي معلومات تدل على أن المسلمين في منتصف القرن السابع

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٤، ص٢٤٨ .

(٢) المصدر السابق، ج٤، ص٢٤٨-٢٤٩ .

الهجري/ الثالث عشر الميلادي لم يعيشوا في جزر منعزلة ، بل حرصوا على معرفة الحوادث الهامة التي جرت في الغرب الأوربي في العصور الوسطى.

وتوثقت عرى الصداقة بين سلطنة المماليك ومملكة صقلية وجنوب إيطاليا، وازدادت رسوخا في عهد الملك شارل (charles ofanjou) أخو لويس التاسع ملك فرنسا. ولويس التاسع هو قائد الحملة الصليبية السابعة الذي هزمه المماليك في موقعة المنصورة عام ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م، وأسروه في دار ابن لقمان. وذكر المقريزي في كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) في حوادث سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م أنه وصل كتاب إلى الظاهر بيبرس من الملك شارك ومعه هدية. وكذلك أشار إلى كتاب من أحد كبار رجال دولة الملك شارل يوضح أنه قد أصبح للسلطان بيبرس بعض النفوذ في صقلية. وكان الغرض من هذه المكاتبات عقد معاهدة تجارية بين دولة سلاطين المماليك ومملكة صقلية.(١)

وتجدر الإشارة إلى أن السلطان بيبرس عقد معاهدات تجارية مع جيمس ملك أرجون (Aragon) وكانت قاعدة مملكته برشلونه، وألفونس أمير أشبيلية الذي تبودلت بينه وبين الملك الظاهر الرسل والهدايا. وكان ألفونس قد أرسل إلى السلطان بيبرس رسالة يخطب فيها وده، فأجابه بيبرس على ذلك بأن أرسل إليه رسلا مزودين بالهدايا، أكرم أمير أشبيلية وفادتهم، وقبل الهدايا منهم، ثم أعد لهم مركبا أبحروا فيه إلى الإسكندرية التي وصلوها في سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م.(٢)

وفي عهد السلطان المنصور قلاون عقد الإمبراطور ميخائيل باليولوغس معاهدة معه. وأورد القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) ترجمة عربية لنص الهدنة التي وردت من الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغس صاحب القسطنطينية في رمضان سنة ٦٨٠هـ/ ديسمبر ١٢٨١م . وعبر الإمبراطور البيزنطى عن رغبته في إقامة علاقات ود وصداقة واتفاق وأن يكون بينهما «محبة مستقيمة، وصداقة كاملة نقية، ولا

---

(١) المقريزى ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٥١٣ وحاشية ٤ .

(٢) انظر محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، ص١١٢-١١٣.

يحرك ملكى أبدا على عز سلطانه حربا ولا على بلاده، ولا على قلاعها ولا على عساكره، ولا يتحرك ملكى أبدا على حربه».[١]

وورد في نص الهدنة أيضا أن يتبادلا الرسل، وألا يلحق بأحد من تجار الطرفين ضرر أو جور أو ظلم، وأن يتم تسهيل مرور أهل سوادق[٢] بما بصحبتهم من مماليك وتجار إلى بلاد السلطنة المملوكية. وعرض ميخائيل على السلطان قلاون نجدة في البحر «لمضرة العدو المشترك».[٣]

وأورد القلقشندى أيضا نسخة اتفاق كتبت من الأبواب السلطانية عن السلطان قلاون نظير الهدنة السابقة وفيها أقسم السلطان قلاون على «استمرار الصداقة، واستقرار المودة النقية» للإمبراطور ولولده ولوارثي مملكته. وتعهد السلطان بعدم محاربة مملكة الإمبراطور أو بلاده أو قلاعه أو عساكره، وأن يكون الوضع بالمثل. وطلب السلطان قلاون أن يتعهد الإمبراطور البيزنطى بألا يحرك أحدا على حرب مملكة السلطان في البر ولا في البحر، ولا يساعد أحدا من أعداء السلطان من سائر الأديان والأجناس، وألا يسمح لهم بالعبور إلى سلطنة دولة المماليك. أكد السلطان في هذا الاتفاق على ضرورة تحقيق الأمان للرسل المسيرين إلى بلاد سوادق، سواء أكان ذلك برا أم بحرا، وما يحضرونه معهم من مماليك وجوار وغير ذلك، والمعاملة بالمثل للتجار البيزنطيين.

وحرص السلطان المنصور قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل على مد جسور الود والصداقة مع كثير من حكام أوربا؛ لإيمانهم بأن تلك العلاقات مرتبطة بالمصالح معاهدة بين السلطان المنصور قلاون وابنه الأشرف خليل وبين الفونس الثالث ملك أرجون. وأشارت المعاهدات إلى اتفاقهم على استقرار المودة والصداقة على مر السنين والأعوام، وأن يكون ملك أرجون وأخته أصدقاء من يصادق السلطان وأولاده، وأعداء من يعاديهمن «سائر

---

(١) القلقشندى و صبح الأعشيوج١٤، ص٧٢-٧٥؛ حسنين ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٢٩٤-٢٩٥ .

(٢) المقصود مغول القفجاق الذين عرفوا بمغول القبيلة الذهبية في جورجيا (الكرج) وحوض نهر الفولجا.

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشيو ج١٤ ،ص٧٥-٧٨؛ حسنينربيع و دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٩٥ .

الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية»، وأن يمنع ويقاتل في البر والبحر كل قصد السلطانية المملوكية بسوء. فيذكر النص: «وإن قصد الباب (البابا) برومة، أو ملك من ملوك الفرنجة متوجاً كان أو غير متوج، كبيرا كان أو صغيرا، أو من الجنويه أو من البندقة أو سائر الأجناس على اختلاف الفرنج والروم... وجميع الأجناس النصارى مضرة مولانا السلطان بمحاربة أو أذية، يمنعهم الملك الريداغون ويردهم، ويعمر شوانيه ومراكبه هو وإخوته ويقصدون بلادهم، ويشغلونهم بأنفسهم عن قصد مضرة بلاد مولانا السلطان وموانيه وسواحله.. ويقاتلونهم في البر والبحر...».

وتنص المعاهدة أيضا على أن يسمح الملك الفرنجي لأهل بلاده وغيرهم من الفرنجة «في أنهم يجلبون إلى الثغور الإسلامية الحديد والبياض والخشب وغير ذلك». هذا فضلا عن العمل على حماية تجار المسلمين، وتجار بلاد أرجون، وأن يكون كل منهم «مطمئنا في نفسه وماله». وجاء في هذه المعاهدة أن «تستمر هذه المودة والصداقة على حكم هذه الشروط المشروحة أعلاها بين الجهتين على الدوام والاستمرار، وتجري أحكامها وقواعدها على أجمل الاستقرار، فإن المملكتين بها قد صارتا شيئا واحدا. ومملكة واحدة لا تنقض بموت أحد من الجانبين، ولابعزل وال وتولية غيره، بل تؤكد أعمالها أحكامها، وتدوم أيامها وشهورها...».[١]

وأورد القلقشندى في كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) نص الهدنة التي عقدت بين السلطان الأشرف خليل بن قلاون وجيمس الثاني ملك أرجون سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م. قد وردت بها عبارات مماثلة لما ورد في اتفاقية أبيه السلطان قلاون مع الملك أرجون، وتأكيد لما ورد في الاتفاقية الأولى من استمرار المودة بين الطرفين، وتشجيع التجارة وحماية التجار وضمان المصالح والمنافع المتبادلة.[٢]

---

(١) انظر نص المعاهدة كاملا في: محي الدين بين عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة ١٩٦١، ص١٥٧-١٦٢ .

(٢) انظر نص الاتفاقية في القلقشندى، صبح الأعشى، ج١٤، ص٦٣-٧٠.

ومن المعروف أن السلطان الأشرف خليل بن قلاون هو الذي فرض الحصار على عكا آخر المعاقل الصليبية في بلاد الشام، ونجح في اقتحام المدينة، استولى عليها سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، ودالت دولة الصليبيين بالشام. ولكن طرد آخر البقايا الصليبية من الشام لا يعني نهاية قصة الحروب الصليبية، إذ استمرت بقية فصولها في القرون التالية، لما يحمله الغرب الأوربي من عداء للإسلام والمسلمين منذ عصر صدر الإسلام ، عندما أصبح البحر المتوسط بحرا إسلاميا خالصا، يدين سكان معظم البلاد الواقعة على شواطئه بالإسلام. وأشرقت عليه شمس الحضارة الإسلامية، التي أخذت تشق طريقها إلى أوربا منذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد، عن طريق عدة معابر أهمها: بلاد الأندلس وصقلية وبلاد الشرق وما ارتبط بها من علاقات خلال فترة الحروب الصليبية، وحركة الترجمة عن العربية.

وألقت صفحات البحث أضواء كاشفة على نماذج من علاقات الدولة الأيوبية ودولة سلاطين المماليك مع أوربا في عصر الحروب الصليبية. وتدل هذه العلاقات على سماحة الإسلام، وأن فضل المسلمين على أوربا أعظم من أن ينكر ، وتدحض تلك الافتراءات التي صورت المسلمين في العصر الحديث - ظلما وافتراء - في صورة هدام الحضارة الإنسانية ومقوضيها، وهم في حقيقة الأمر ليسوا إلا بناتها وحماتها.